تداعيات الحاضر الفكرية وانعكاسها على العمارة
دراسة في خصوصية العولمة

د.اسعد يعقوب ججو
هيئـــة التصنيع العســـكري

عدي عباس عبود
الجامعـــة التكنـــولوجـــية

الخلاصة:

العمارة في أحد تعاريفها الأولية كيان حضاري مادي يعكس بعداً فكرياً تؤثر في محيطها وتتأثر فيه لتكون مرآة لواقعها وخصوصاً البعد الفكري ، يبرز في هذا الإطار الأثر المتنامي لظاهرة العولمة وما تطرحه من فكر ينعكس بدوره على البعد الثقافي عامة والعمارة بصورة خاصة ليبلـــور بـــدوره صيغة خاصة للتطبيق في ظل البُنى الفكرية والتحديات التي تطرحها ليتحدد هدف البحث _فـــي ظـــل غياب الصورة الواضحة حول خصوصية الانعكاس لفكر العولمة في العمارة _بمحاولة بيان صـــورة الانعكاس لهذا الفكر في العمارة وبما يضمن حالة الاستيعاب لهُ .

يتصدى البحث للعولمة كمفهوم من خلال بيان أبعاده وجوانبه ليستعرض إلى دور المفهوم وحضـــوره في الواقع وبيان بعده المستقبلي في بلورة التوجهات العامة والخاصة حيث تتراوح وجهات النظر فـــي هذا الإطار بين مبشر أو محذر ، بين من يعتبر العولمة القدر الذي لا مفر منه وبين مقلل من أهميتها، لينتقل البحث إلى الخوض في أبعاد المفهوم من خلال بيان بعده اللغوي ومنه إلـــى تعريـــف بأبعـــاده وجوانبه وما يثيره من جدل وعلاقته بالهوية وبما يضمن استيعاب المفهوم في بعـــده العـــام ، لينتقـــل البحث بدوره إلى انعكاس المفهوم في العمارة وما يفرزه من مؤثـــرات وبالتـــالي بيـــان خصوصيـــة التطبيق.

The theory and its reflection Research about the theory of Architecture

Aday abas Abood
Technological University

D. asaad Yacoob
Military Industrial Corps

Abstract:

The theoretical side is very important in Architecture because the Architecture in one of its announcements is just material acumilate which reflects a thoughtful dimension to know more about effect and affect, we have to make clear the theoretical sides that reflects on and reflects from it according to that theoretical dimension which takes it effects and its role in defining more clear the image of Architecture in future. We have to explain exchanged effects and affects between the Architecture and the theoretical side in the frame of a complete dimensions for both of them the material and the theorical.

Taking cure with the period differs ingrates and at last the thoughts results from according to the angles of analyzing and measuring. Adding to that what results from it and the effect that wasleft on. All points on the importance and the effect of globalization depending on the size of effection and its type which is actually left because it is expected that it will have its active role in creating the image skekage of the future the research us the principles of the explanation of this theory and its reflections on the Architecture and this refers to the descriptions of the image of architecture in the future depending on its affects on it. So we have to make clear the general sides first of all then to make clear its special dimensions which provide basic information that make clear the type of data or its capacity of being crystal and it reflects on the Architecture, lightened with the designed pole process and describing its effects on architecture and what crystallize the image of response direction for this theory.

مقدمة

يشكل الجانب الفكري جانباً مهماً في العمارة حيث تكون العمارة في أحد تعاريفها تكوينات مادية تعكس بعداً فكرياً. وللتعرف على العمارة من حيث التأثير والتأثر لابد من استعراض الجوانب الفكرية العاكسة لها والمنعكسة منها . انطلاقا من ذلك يأخذ البعد الفكري أثره ودوره في تعريف العمارة وخلقها ، ولاستيضاح صورة العمارة مستقبلاً لابد من تفصيل التأثير والتأثر المتبادل بين العمارة والجانب الفكري في إطار من تكامل البعدين المادي والفكري.

تختلف درجة الاهتمام بحقبة زمنية وبالتالي الفكر الناتج عنها ، باختلاف زوايا التحليل والمقياس اضافة الى ما ينتج عنها والأثر الذي تخلفه . تؤكد المؤشرات على أهمية واثر فكر العولمة اعتماداً على حجم الأثر ونوعه الذي يخلفه فعلياً حيث يتوقع ان يكون له دوره حاسم في تشكيل صورة المستقبل.

يعمد البحث في إطار توضيح خصوصية هذا الفكر وانعكاسه على العمارة وبما يؤدي الى توضيح صورة العمارة مستقبلاً اعتماداً على تأثرها به – الى توضيح جوانبه العامة أولاً ومن ثم توضيح أبعاده الخاصة بما يحقق توفير قاعدة معلوماتية تمكن من بيان صيغته او إمكانية تبلوره ومن ثم انعكاسه على العمارة في ضوء أقطاب عملية التصميم وبما يمكن من بيان تأثيره في العمارة وبما يبلور صورة التوجه المستجيب لهذا الفكر .

العولمة خيار مستقبلي

تؤكد الدراسات الحديثة في تحليلها للواقع على بروز وتنامي دور مفهوم قديم في مبادئه العامة جديد في طرحه وكثافته ،يتمثل هذا المفهوم بـ (العولمة) بوصفها حقيقة قائمة متنامية ذات بعد ممتد نحو المستقبل.

تتعدد الآراء في اثر (العولمة) وحتميتها حيث ينقسم الموقف في هذا الجدل إلى قطبين تشغل بينهما أطياف مختلفة من المواقف يتمثل الأول باعتبارها حقيقة واقعة لا مفر منها بل هي حتمية في حين ينطوي الموقف الآخر على التقليل من شأنها باعتبارها مبالغة زائدة وتضخيم.

في إطار الموقف الأول توصف العولمة بأنها مجموعة التوجهات ذات البعد المستقبلي ،القوة الحقيقية التي تقود البشرية ككل الى المستقبل وتعدها لمعطيات ومتطلبات القرن الواحد والعشرين ، وتمثل واقع لابد الاعتراف بوجوده وتمثل المنظور المستقبلي الأقرب الى الحتمية التاريخية .. ليتم اعتبارها القوة الرئيسية التي تقود البشرية، كرهاً او طوعاً وتحدد لها خط سيرها .وهي حقيقة ملموسة تعيشها الشعوب، سياسياً، اجتماعياً، ثقافياً وإعلامياً . في حين يعتبرها البعض وبالرغم من عدم الوصول الى عصر العولمة بالكامل بأنها لم تعد تقف خلف الباب تستأذن الدخول بل بدأت تفعل فعلها منذ سنوات. ولم تعد مجرد مفهوم بل هي ممارسة وسلوك يومي وعملية مستمرة تنمو وتتطور على الدوام. ويمكن تلمسها من خلال مجموعة من المؤثرات الكمية والكيفية في مجال الاقتصاد والسياسة والثقافة ،ويرى (فوكياما) إن العولمة حاضرة لامد طويل ولسببين جوهريين –على الأقل– في البداية: لم يعد يوجد نموذج آخر امثل للتنمية بإمكانه ان يعد بنتائج افضل مما أتت به العولمة، .. أما السبب الثاني الذي يجعل توقف العولمة قليل الاحتمال فيكمن في التكنولوجيا وقدرة تكنولوجيا المعلومات.. (1)

1المزيد من المعلومات أنظر كل من (فانوس،1999،ص16-18) ، (بدران ،1999،ص3) ،(الرميحي،1999،ص5) ،(عبد الخالق،1999،ص39_40) ،(حجازي (1)، 1999،ص123) ،(حجازي (2)،1999،ص18) ،(قطامي،1999،ص13،17) ،(رسلان وسمير ،1999،ص9) ،(فوكياما،2000،ص8) .

وبعيداً عن وجهة النظر هذه وفي إطار الجدل القائم حول حتمية العولمة أو عدمها يؤكد البعض على نتيجة مؤداها ان العولمة ليست الخيار الوحيد، فهي ليست القدر الكاسح الذي يستعصي على المقاومة فموجبات العولمة التي تبدو حالياً قاهرة ما هي إلا لحظة في سياق التطور السياسي للإنسانية لا ينبغي تعميمها على المستقبل مثلما لم تكن حقيقة في الماضي ، فلا يُحكم التاريخ من خلال قوانين (اقتصادية خالصة) كما يتصور أصحاب أيديولوجية النظام، بل التاريخ ناتج التفاعل بين هذه القوانين من جانب وبين ردود فعل المجتمع لها من الجانب الآخر ،فليس للعولمة طابعاً حتمياً وما يتمظهر (كقوة موضوعية) ليس إلا تجلياً لاحد المشروعات الممكنة . (2) ولابد من الإشارة هنا الى ان وجهة النظر المخالفة لحتمية العولمة إنما تصب في التأكيد على أهميتها وفعاليتها بمجرد تصديها لجوانبها وموضوعها باعتبارها حديث الساعة. ولا يعدو مخالفتها لهذا الرأي سوى تأكيداً منها على إمكانية التعامل معها وتطويعها دون ان يكون لها بعداً قسرياً.

بعد بيان دور العولمة وأثرها كمفهوم فاعل حاضراً ومستقبلاً سيعمد البحث في فقراته اللاحقة الى تحديد جوانب العولمة وأبعادها ابتداءً بجانبها اللغوي وتعريفها.

العولمة لغة:

يشتق الاسم الإنكليزي للظاهرة (Globalization) من (Globe) بمعنى الكرة، والمقصود بها هنا الكرة الارضية ،ومقابل العالم (World) والكون (Universe) . كلمة العالم تعني البشرية وتوحي بمشاركة الناس جميعاً في انتشار الظاهرة محل الدراسة. اما اصل الظاهرة في اللغة الفرنسية (Mondialisation) فآتٍ من العالم (Monde). وتعني "جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود الى اللامحدود الذي ينأى به عن كل مراقبة." (بالراشد، 1999، ص4-5)

والملاحظ تعدد التسميات عربياً للظاهرة بين عولمة اشارة الى (Mondialisation) او كوكبية اشارة الى (Globalization) حيث يشيران وحسب قاموس (وبستر) الى: "اكتساب الشيء طابع العالمية وجعل نطاقه وتطبيقه عالمياً .وتسميات الظاهرة تتراوح ما بين (العالمية)، (الكوكبية)، (الكونية) ويفرق البعض بين هذه المفاهيم مع ما بها من تداخل وخلط في كثير من الأحيان.

العولمة تعني "احتواء العالم وهي غير العالمية التي تعني الانفتاح على العالم بالعلاقات الدولية القائمة على توازن المصالح بين دول العالم." (منلتي، 2000، ص26) وبهذا يحدث تصادم بين مفهومي: (العالمية) بصورتها الانسانية، و(العولمة) .

يفرق (خضور) بين كل من (الكوكبية) و(الكونية) و(العالمية) و(الدولية). حيث يكون المقصود عنده بـ (الكوكبية): "المنظومة الثقافية المتداخلة التأثير بتلك المنظومة الاقتصادية، فتسخرها وتتضافر معها، بهدف الهيمنة المطلقة، وبالتالي تصبح الكوكبية هي الوجه الثقافي الأيديولوجي للعولمة." والتي تعتمد على ركائز عدة أهمها: 1. نهاية التاريخ الفوكويامية(3). 2. صراع الحضارات الهنتنغتونية(4). 3. الموجة الثالثة

---

2 أنظر (الرفاعي،1999،ص104) ،(ياسر ، 2000، ص183) ،(السيد ، 2000، ص75) ،(سمير، 1997، ص90-91،93) ،(عبد العظيم، 1999، ص33)

3 يشير (فوكياما) في مقولته التي أحدثت صدى واسع (نهاية التاريخ) الى ان النظام الرأسمالي اللبرالي قد وصل الى حد متكامل مؤذناً بذلك نهايةً للتاريخ.

4 طرح صامؤيل هنتنغتون نظريته المشهورة (صواع الحضارات) التي تؤكد على التمايز الثقافي بين الحضارات مقسماً حضارات العالم الى سبع حضارات مع إمكانية إضافة حضارة ثامنة هي الحضارة الأفريقية مؤكداً على إمكانية حدوث الصدام بينها مستقبلاً فالصراع مستقبلاً يكون بحافز ثقافي حضاري عنده.

– المعلوماتية – التوفلرية(5). 4. نهاية المثقف. 5. القرية الصغيرة. ولتختلف (الكونية) كمنظومة تعبيرية راسمة لنظام الكون الشمولي مكانياً وزمانياً، عن (العالمية)(6) كسمات مشتركة واسمة لشعوب وامم العالم ، وعن (الدولية) كاشتراط تعبيري سياسي يصف المشترك بين دول العالم." (خضور، 1999، ص12)

في حين يرى حجازي إن (العولمة) بالمفهوم المتداول "لم تعد منسوبة ومنذ عقدين تقريباً الى كلمة (Globe)، الى كوكب الارض، وتُعرب بكلمة كوكبة (Globalization)، وتصبح العولمة كعملية هي ترجمة لكلمة (Globality)، وهي العملية التي تملك آليات التطبيق، أي تحويل العالم الى شكل موحد يلغي الحدود بين الدول والامم ، ذات صيرورة مفتوحة حيث تبنى لغوياً على وزن (فوعله) الذي يتضمن الشغل على وضع غير ناجز وصولاً الى تشكيله ." (حجازي (1)، 1999، ص128).

العولمة تعريف

تتعدد الآراء و الطروحات حول تعريف العولمة حيث تتباعد في جوانب وتلتقي بأخرى. فهي كما يصفها أستاذ الاقتصاد (جلال أمين) بالنسبة للبعض مثل وصف العميان للفيل، كل يصفه حسب المكان الذي يضع يده عليه ، وهذه المقولة تعكس حقيقة الواقع المعرفي المتناول العولمة من حيث تعدد اوجه الطرح ومحاوره إضافة إلى الحقول المدروسة في ضوئه من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة . العام في تعريف العولمة تعبيرها عن مرحلة تاريخية من مراحل تطور العالم ،وهي ظاهرة وحركة معقدة التركيب تتشابك فيها وتتفاعل تفاعلاً تبادلياً كبيراً القوى والعوامل والمفاهيم والافكار الاقتصادية والتسويقية والسياسية والتكنولوجية والمعرفية والاجتماعية والحضارية والثقافية والتربوية. وهي ان لم تكن ظاهرة جديدة في التاريخ البشري، إلا إنها ذات أبعاد وملامح جديدة ومعاصرة عميقة تؤثر على حياة المجتمعات والأفراد والقيم والمفاهيم والأفكار والحضارات والثقافات .

ويرى البعض " فيها طوراً من التطور الحضاري يصبح فيه مصير الإنسانية موحداً او نازعا للتوحد. و(الوحدة) هنا لا تعني التجانس والتساوي بين جميع أجزاء العالم والمجتمع البشري، ولكنها تعني درجة عالية من التفاعل بين مناطق ومجتمعات بشرية مختلفة ومتباينة وبالتالي ازدياد درجة التأثير والتأثير المتبادل(Interdependence). "(عدنان، 1999، ص13). ووجهة النظر هذه تنطلق من الجانب اللغوي لكلمة (عولمة) تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله . والعولمة تهدف الى إزالة الحدود والقيود بين دول العالم، وإسقاط كل ما كان يعد مقدساً في الماضي كالحدود الجغرافية أو الأيديولوجيات السياسية او النظم الاقتصادية أو الهويات الثقافية او الخصوصيات الاجتماعية أو الدينية والمذهبية .وهي من جانب آخر اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش في حين يرى البعض فيها عملية " تعميم لأنماط الإنتاج

---

5 أشار (الفن توفلر) (أستاذ المستقبليات) من خلال قراءة تاريخية ولمعطيات الحاضر الى ولادة موجة جديدة سماها بالموجة الثالثة مبشراً بعالم منا بعد الصناعة الذي يمتاز ببعده التقني والفكري الذي لم تعهده البشرية من قبل.

6 ترتكز وجهة النظر العالمية في العبارة التي مفادها "الهيكل الداخلي للغة عام وعالمي ككل الأشخاص يشكل الاختلاف ما بين اللغات أهمية دلالية ضعيفة، تنتمي الى سطح اللغة الخارجي، وببساطة نشأت من الحوادث الاعتباطية للتطورات التاريخية للثقافات المختلفة. وعلى هذا الأساس، كل اللغات تنتهي عند نفس الخط وكل القواعد تشتق من نفس الجينات الموحدة العالمية. النقل بين اللغات ممكن تشخيص الهوية كتوجه داخلي في أعماق كل لغة بغض النظر عن مظهرها الخارجي ."(Abel، 1997، p. 149) .

واستهلاك وتوزيع وتبادل لأنماط ثقافية واجتماعية وسياسية ولقيم وأخلاقيات ولأنماط إعلامية تشمل العالم كله. وبذلك تكون تعميم لنمط حياة معين ودعوة لتبني نماذج معينة." (رسلان وسمير، 1998، ص10). واعتماداً على وجهة النظر هذه فان العولمة في موجزها صيغة تجنيسية للكل من خلال الجزء، حيث يدخل عنصر القوة الموجهة، دوراً كبيراً في اخراجها بالصورة السائدة " (ابراهيم، 1998، ص146)

يتضمن مفهوم العولمة اتجاهات (Attitudes) ومنحى (Approach) وقيما (Values). ومن ضمن توجهاتها ربط العالم وتوحيده، وبالتالي إلغاء فكرة المكان ومفهوم الزمان ، ويتضمن مفهوم العولمة "تعينا مكانيا يتسع الى مستوى الإطار العالمي برمته، من خلال تهاوي حدود المكان. كما يتضمن تعينا زمانيا مزدوج المدلول، حيث يصبح الزمن راهنا وفي اللحظة (تهاوي، حدود الزمان)،مدشنا مرحلة تاريخية ويحدث ذلك من خلال الفضاء السايبرنطيقي (Cyberspace) والذي يسمح بتجاوز حدود المكان والزمان ويجعل العالم كله حاضرا هنا والآن وعلى مدار الساعة." (حجازي (2)، 1999، ص21) .

العولمة متحركة بطبيعتها وليست ثابتة إنها عملية مستمرة تكشف كل يوم عن وجه جديد من وجوهها المتعددة ،تتخذ العولمة كتجاوز للحدود شكل النظام بكل ما تعنيه كلمة نظام من تكامل وتساند الأجزاء لضمان استمرارية عمل النظام. وتتوجه العولمة نحو تأكيد (سيادة) الاقتصاد ،حيث اصبح مع ارتباطه الجذري بالثورات التكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية هو الحاكم بأمره .

والعولمة بوصفها نمط معين من الحياة، تدفع باتجاهين (متناقضين) وان كانا متكاملين:

الاتجاه الأول: توحيد الطبقات العليا (الرأسمالية الاحتكارية)في معظم بلدان العالم تحت قيادة واحدة .

الاتجاه الثاني: تفتت وتحلل الوحدات الاجتماعية، والدول الأكثر هشاشة، او (الدول الرخوة)، بل النكوص الى ان ما تحت القومية الوطنية، باتجاه الطائفية والعرقية والقبلية والإقليمية.ومعنى ذلك ان العولمة "تحل خطر الاندماج والتبعية للغرب بشكل اكثر بشاعة ما حدث في القرنين الماضيين ، فضلا عن خطر (الافتراط من الداخل).

وبقدر ما تبدو الحداثة ظاهرة أوروبية فان العولمة في شكلها، وربما أيضا في مضمونها، ظاهرة أمريكية في المقام الأول. لذلك لا يمكن فهم العولمة وكأنها مجرد حداثة او حداثة جديدة. ان للعولمة سمات مختلفة كل الاختلاف عن الحداثة، ولها مفرداتها المختلفة، وتستند الى وعي جديد بعالمية العالم، وبأن العالم اصبح اكثر ارتبطا من أي وقت آخر. عالم العولمة يختلف عن عالم الحداثة في انه عالم أصبحت فيه حركة الأفراد والسلع والمعلومات ورأس المال أسرع واسهل من أي وقت اخر، كذلك فان عالم العولمة هو عالم تقلصت فيه المسافات وأصبحت عالما بلا حدود، وذلك على العكس من عالم الحداثة القائم على الحدود. لذلك فانه في عالم العولمة حدث تداخل شديد وغير مسبوق بين الداخل والخارج، واصبح العالمي بنفس أهمية وتأثير المحلي على قناعات وسلوكيات الأفراد والمجتمعات." (عبد الخالق، 1999، ص59-60)

تبلورت صورة وصيغ العولمة من مبادئ و أسس اقتصادية، ما لبثت أن انتقلت الى بقية منظومات المجتمع السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية.

تبنى العولمة على مجموعة متناقضات حيث يوجد فيها "الكثير من الفوضى والتضارب والميول المتنافرة والقوى المتصارعة وعمليات الاستقطاب الواسعة ...، لكن النظام ككل ليس فوضى وليس محكوما بالفوضى.." (العظم، 1997، ص43). والفوضى والتناقض والتضارب ليست عوامل انهيار ودمار دوما، بل كثيرا ما تكون علامات حيوية ونشاط وتجدد وصحة وقوة .يشير (المسيري) الى ان انكار القيمة هو قيمته نظام العولمة الكبرى والنهائية، "وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية هي قيمته المعرفية الكبرى

والنهائية، وتأكيد ان العالم في حركة دائمة هو قانونه الثابت." (المسيري، 1999، ص20)

يبرز سؤال ملح متعلق بالجانب الاستيعابي للعولمة كونها غاية ام وسيلة؟ وما المترتب على ذلك؟.

تكمن أهمية هذا التساؤل في الما بعديات المترتبة عن الإجابة، حيث تشكل هذه النقطة ضرورة في صيغة التعامل مع العولمة قاطبة .. وبسبب من غياب الصورة الواضحة حول هذا التساؤل، برزت اوجه للخلل في الموازنة لردود الفعل على العولمة بوصفها فعل وبالتالي ما بين الوسائل والنتائج . ولدت هذه الإشكالية ردي فعل ينبع أولهما من اعتبار العولمة غاية يريد الغرب تحقيقها وبالتالي إهمال العديد من الجوانب. في حين كان الثاني منهما مكملاً للاول في الانهماك بالتفاصيل والوسائل الأمر الذي يؤدي الى نسيان الغايات. تولد عن ذلك مواجهة ورفض العولمة لأنها تقع تحت مسمى العولمة(7) ونسيان او تناسي الغايات التي جاءت (بوصفها وسيلة) لتحقيقها .

الغاية القابعة خلف العولمة تتركز في محاولة الهيمنة والسيطرة (للطرف الاقوى)(8) ونشر مفاهيمه وافكاره وتصديرها وصبغ العالم بها. وقبل هذا وذاك الربح والمنفعة المادية وجني المكاسب.

ما يؤكد كون العولمة وسيلة اعتماد سياسة التلون من قبل ابرز دعاتها (امريكا والغرب) والتخلي عن مبادئها بمجرد تعارضها مع او عدم تحقيقها للغاية الكامنة خلفها. والشواهد على ذلك كثيرة فهي لم تعد معنية بكرسي (شيخ التجار)، بل تريد ان تبيع وتشتري وتكسب بمنأى عن الوجاهة المكلفة .

العولمة والهوية:

تختلف وتتعدد الآراء حول التأثير المتبادل بين الهوية والعولمة بين ما يرى في العولمة السيل الجارف للهوية وبين مقلل من أهمية التعارض الى حد إمكانية تعزيز أحدهما الآخر.

تنطلق العولمة الثقافية من التعريف الاقتصادي لتحاور عناصر الهوية الثقافية (اللغة والدين والتاريخ والجغرافيات والعادات والتقاليد)، لتزعزع كينونة هذه العناصر الثابتة لان حوار العولمة مع الهوية هو حوار الذئب مع الحمل .تتعدد الوسائل التي تتبعها (العولمة) في صراعها مع الهوية ابتدأ بنبذ التراث القومي كما تعمد الى إعادة بناء العالم من خلال إعادة بناء الذاكرة الجماعية للمجتمعات عامة وللمجتمعات المحلية على وجه الخصوص ،فيما يُشكل التمادي في عملية التجنيس الحضاري تهديداً لخصوصية الإنسان "الذي سرعان ما يفقدها تحت وطأة الشائع والغالب الذي يكتسب سلطته من شيوعه وغلبته لا من أصالته وتميزه . كما تعمد وبقصد إضعاف الثقافة الى إثارة الصراع القديمة وصراع التقليدية والمعاصرة .تركز العولمة في هذا السياق بتمويه الطابع المحلي بطابع شمولي جامع، وتغليف ثقافة معينة، وهي الثقافة الأشد بطابع الحضارة الكونية .سلاح العولمة في هذا الإطار يتمثل بـ ثقافة راسخة عابرة ومخترقة ، فهي تنشد تقليص الخصوصيات المعارضة، والمنغلقة من خارج سربها .فهي كمنظومة كونية تنطوي في تجلياتها على

---

7 ربما يرجع ذلك الى (ولع) العرب بالخلاف لاجل الخلاف. حيث تولد ردود الفعل تجاه الظاهرة او الحدث عكسية في الغالب لا لعدم ملاءمته أو صلاحيته وإنما بسبب من كونه غريب (او غربي). يدعم هذا (الولع) تكريس عقدة (السير في الركب) او عقدة (رداء الملك الذي لا يُرى) بل التوجه الى الثناء على هذا الرداء الخفي الذي يمكن ان يصنعه نفر قليل من المفكرين بحق او بدون حق لتتبري الأقلام ورائهم في صياغته والتمجيد بمحاسنه ووصم من لا يراه بالغباء ! بل بالتآمر !

8 ترتكز العولمة على سياسة اللعبة ، فالعالم عبارة عن لعبة كبيرة يتنافس اللاعبون فيما بينهم وفق شروط محددة. وانطلاقاً من ذلك توجد حقيقة يغفل عنها الكثير (مع بداهتها) من حيث إمكانية تبادل الأدوار والقوى. فان كان الغرب هو الفاعل الحالي واللاعب القوي فلا يعني ذلك الثبوت، بل إمكانية بروز لاعب يسير اللعبة لصالحه .

تمايز وتفرد وتكريس الاختلاف وتعميق الفوارق بين الدول وداخلها أيضاً .

وبذلك فإن آليات العولمة في صراعها مع الهوية تتمثل بـ:

التأكيد على صراع القديم والحديث.

التمادي في عملية التجنيس الحضاري.

التأكيد على الإمكانات والقدرات التكنولوجية والعلمية والمعرفية المتطورة والمتقدمة.

التأكيد على التمايز والتفرد وتكريس الاختلاف وتعميق الفوارق بين الدول وداخلها.

نبذ التراث واستبعاده.

تقليص الخصوصيات المعارضة.

تمويه الطابع المحلي بطابع شمولي جامع.

تغليف الثقافة السائدة بطابع الحضارة الكونية.

إعادة بناء الذاكرة الجمعية للمجتمعات عامة وللمجتمعات المحلية على وجه الخصوص.

التأكيد على الشائع والغالب بدل الأصيل والمتميز.

إزاء وجه النظر هذه يرى البعض عدم وجود تعارض بين العولمة والهوية فالهويات الثقافية تصبح قابلة اكثر للتفاعل في زمن العولمة بسبب خصائصها نفسها. تدعم وجهة النظر هذه الدراسات العلمية الموضوعية التي تحاول التركيز على تاريخية ونسبية الهوية وعدم الإقرار بثباتها مما يعني عدم التعامل بنظرية القطبية والمواجهة بين العولمة والهوية، أو إنها يسيران في خطين متوازين مع احتمال التصادم والصراع عند حدوث التلاقي او التقاطع. بينما نسبية الهوية تجعلها مرنة قد تتعايش أو تقتبس من ثقافات أخرى بل قد تساعدها عوامل التقارب وسقوط الحواجز في تفاعل إيجابي وخلاق مع العولمة . فالعولمة لا تهدد الهوية الثقافية بالفناء والتذويب، بل تعيد تشكيلها، او حتى تطويرها لتتكيف مع الحاضر. فالإنسان يتجه الآن نحو إمكانية ان يعيش بهويات متعددة .

وإزاء هذا التناقض في وجهتي النظر أعلاه (من مركّز على قيم التضاد حد الصراع -ما بين العولمة والهوية- الى مقلل من قيمه ، مركّز على إمكانية التوافق والتعايش) لابد من الإشارة الى رؤية الفريق الأول مالا يراه الفريق الآخر ،حيث تنطوي العولمة في جانب مهم منها على تناقض جوهري نابع من خصائص داخلية عميقة فهي وان كانت تميل الى تعميم نمط معين فإنها تتوجه الى اكبر عدد ممكن من المستهلكين (المتلقين). إذ تحاول الرأسمالية بهدف توسيع الأسواق وترويج السلع، ان تضع في الاعتبار التباينات والاختلافات المحتملة، فتقوم بتفصيل (سلع، الأسواق الإقليمية والمجتمعية والاثنية والطبقية والنوعية المتخصصة والمتزايدة، بما يتضمن ما يطلق عليه التسويق المصغر).

وهي بذلك تميل الى التعميم والتنميط وبالتالي التوحيد وطمس الهوية وفي ذات الوقت تراعي الجوانب الخاصة بدافع اقتصادي .وهذا بدوره يعني ان العولمة في حقيقتها تعمل على نشر التنميط ولكنها في ذات الوقت ممكن ان تراعي الجوانب الخاصة والهوية (عند الحاجة) ،الأمر البارز ان خطر العولمة الحقيقي على الهوية لا يكون من خلال عملها على التنميط او طمسها – بسبب توليد الفعل لرد الفعل المعاكس له وبالتالي فإنها بتأكيدها على التنميط تغذي الاتجاه المضاد وتوفر له القاعدة الشرعية – خطر العولمة الحقيقي ينبع من طرحها للهوية وتعرضها لها ولكن بصيغتها الهامشية السطحية دون الجوانب العميقة في إطار تسطيح المدارك والتأكيد على الجوانب المظهرية وتشكيل الذوق .

صورة الانعكاس العام في العمارة:

في ظل العولمة يتم ترسيخ مقولة (عصر الصورة) والأعم إن سمة العصر اكتساب المعرفة من خلال مشاهدة الصورة بالاعتماد على الوهم الامبريقي القائل: إن الواقع المرئي يعرف بمجرد النظر إليه الأمر الذي مهد للاندفاع باتجاه التقديم الغزير للصورة. هذا الزعم يتناقض مع حقيقة انه لا يكفي إطلاقاً استقبال الصورة بغزارة بل ينبغي معرفة قراءتها.

وابرز التحديات التي تفرضها هكذا ثقافة تحطيمها لقدرات الإنسان، وجعله إنساناً مستهلكاً غير منتج، ينتظر ما يجود به الغرب ومراكز العالم من سلع جاهزة الصنع، بل تجعله يتباهى بما لا ينتجه والتطلع إلى اقتناء السلع الاستهلاكية التي تتغير يومياً لا في سبيل التطور فقط، بل في سبيل زيادة حدة الاستهلاك على المستوى العالمي . وقد لعبت آلية تعميم ثقافة الاستهلاك دوراً في التطلع الشديد للبحث عن الجديد في الأسواق بغض النظر عن حاجة المجتمع إلى هذا الجديد من السلع .والمقولتين أعلاه تنطويان على جوانب مهمة أولها متعلق بما تفرزه هذه الثقافة من تحويل الاهتمام تجاه الاقتناء والاستهلاك محل الإنتاج والإبداع وبالتالي فان مجرد الحصول على المنتج يكفي بدلاً من معرفة الكيفية للإنتاج.

تطرح العولمة مشروعاً متكاملاً -وان كان في طوره التأسيس غير مكتمل وواضح المعالم- تكامل هذا المشروع متأت من طبيعة توجهه إلى أطراف الإنتاج من المنتج (المبدع) والمستهلك (المتلقي) وعملية الإنتاج (عملية الإبداع) إضافة إلى المُنتَج ذاته (العمارة).

تطرح العولمة مشروعها اعتماداً على سياسة فرض الأمر الواقع والتوجه نحو التغيير الممتد(9) المباشر منه وغير المباشر لفرض صورتها النهائية وتحقيق مشروعها، المركز على البعد المادي دون الأفكار والقيم، والتوسع والعمومية دون الخصوصية والمؤكد على قيم السوق دون الأبعاد الإنسانية والمؤكد على التلقي السلبي دون التفاعل والخلق. والظاهر والصورة دون الجوهر، وغيرها من الثنائيات .

يؤشر ما تم طرحه من جوانب عامة وخاصة صورة العولمة وخصوصية هذا الفكر وانعكاسه في المجال العملي وبالتالي خصوصية صورة الانعكاس في العمارة، حيثُ تعيد العولمة النظر في العمارة ككيان كُلّي وما يرتبط به من مسلمات ومبادئ فضلاً عن البعد الفكري وما يرتبط به من جوانب ثقافية وخصوصيات اجتماعية أو دينية، كما تعيد النظر بعديد من الأفكار مثل فكرة الزمان والمكان، حيثُ تؤكد على توسيع حدود المكان ليشمل العالم كله وتتضمن تعييناً زمانياً حيثُ يصبح الزمان راهناً.

تؤكد ممارسة العولمة العامة -وبالتالي في العمارة- على التناقض والفوضى والمعايير المزدوجة وهذه بدورها تشكل جوانب قوة -على العكس من الاعتقاد السائد- حيثُ توفر هذه الخصائص إمكانية المرونة والتلون والتأقلم مع الظروف والمتغيرات وبالتالي التوافق المؤدي إلى الاستمرارية. تكريس صفات العولمة هذه في العمارة يعني التأكيد على التنوع والاختلاف في النتاج بل وحتى التوجه، يصل إلى حد التناقض حيثُ تتحول العمارة من كونها مطلب اجتماعي يعكس بُعداً ثقافياً وجانباً فكرياً إلى كونها مطلب اقتصادي ووسيلة للربح تحكمها جوانب اقتصادية فهي بالتالي تعكس بُعداً اقتصادياً، لتحول النتاج المعماري وبالتالي التوجه المعماري والممارسة إلى وسيلة للتوافق مع الطلب والسوق، وهذا بدوره يفسر سبب التلون والتعدد المصطبغة به.

تؤكد العولمة في العمارة على العمومية المؤدية بدورها إلى تحقيق العالمية للنتاج، حيثُ تحاول جعل الخاص عاماً لرفع التناقض، فهي صيغة تجنيسية للكل من خلال الجزء، تركيزها على العمومية يعكس نزعتها للتوجه بعيداً عن التجانس في إطار من التفاعل بين المناطق والمجتمعات البشرية المختلفة والمتباينة ولكنه في أكثره ينطوي على نوع من الفرض والسيطرة للطرف الأقوى وبالتالي تعميم نمطه الفكري

---

(9) المقصود بالتغيير الممتد هنا اعتماد صيغة التغيير البطيء التراكمي من خلال مشروع يأخذ بعين الاعتبار التسلسل والتخطيط المستقبلي الدقيق وحساب احتمالات التغيرات والتطورات والسعي الى خلق صورة المستقبل اعتماداً على هذا المشروع مبتعداً عن التوجه الآني اللحظي. وتشكل السياسة اللينة أهم السياسات المتبعة في هذا الإطار.

والثقافي والاستهلاكي. العمومية هذه تؤكد على توحيد الطبقات العليا وتحليل الوحدات الاجتماعية والدول الأكثر هشاشة وبالتالي النكوص إلى ما تحت القومية الوطنية باتجاه الطائفية، القبلية، العرقية والإقليمية، وهذا بدوره يعني توحيد للنتاج المعماري في إطار النخبة وتفرق أو توحيد للتفرق لما سوى هذه النخبة، العمارة تكون بصورتين ، صورة متعالية على المكان والانتماء حاضرة في كل مكان تعكس توجه النخبة تتجاهل انتمائها للمكان والعمارة وتعكس قدرات وإمكانيات النخبة حيثُ تفرض نفسها كآلة بالغة التعقيد تتحدى ظروفها لتخلق ظروفاً وأجواء جديدة ترتفع فوق ما هو مناسب إلى ما هو باذخ. وصورة أخرى قاتمة -أو تصور كذلك- تعكس توجهات الطبقات الدنيا والوحدات الاجتماعية الأضعف، تنطلق من ردود الفعل تجاه عمارة النخبة، لتكون نزعتها إنتمائية مركزة على الهوية بمستواها القومي أو الديني أو الطائفي. عمارة تصور على أنها انتكاسة لمسيرة التقدم ورجوع وتخلف عن ركبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بصورة مباشرة من خلال التوجه المعماري السائد وتصوير الإعلام ونقده ،وغير مباشرة من خلال التوجه العام وما يبثه الإعلام من تقييم أو نقد أو ترويج لأفكار لا تمس العمارة مباشرة بل تؤثر فيها، فضلاً عن المقارنة المستمرة بين النخبة وما دونهم. يعزز كل ذلك سيادة الأقوى على حساب الأصلح، لتطغى عمارة النخبة بصورتها البراقة الفضفاضة المحققة لأقصى غايات البذخ فضلاً عن طغيانها الكمي بناءاً على قدرات النخبة ذاتها. وإزاء هذا الطغيان لا يمكن إلا أن تصبح صورة عمارة النخبة سوى كونها عمارة الحلم عمارة التقدم والحضارة وما سواها دعوة للتخلف وبذلك تخفت صورة (عمارة الجمهور!) محاولة اللحاق بمثلها أو حلمها المتمثل بعمارة النخبة. عمارة النخبة هذه تعكس -كما تقدم- رغبات أصحابها، واعتماداً على استحالة تجانس وتوحد رغبات النخبة، عليه يمكن أن يبرز من ضمن النخبة من يطالب بحالة من الانتماء والتواصل ، وهنا تبرز صورة العمومية الأخرى في توجه العولمة حيثُ التركيز على ما هو عام وسطحي لإرضاء طالبها ، إعطاءه أشباه الانتماء بدلاً من الانتماء، أشباه الهوية دون جوهرها حيثُ تقتصر الممارسة في إطار من العمومية بجعل الخاص عاماً. وهي بفعلها هذا لا تشكل -ظاهرياً- حالة اختلاف أو تعارض مع (عمارة الجمهور) فهي تحقق الهوية والانتماء ولو في مستواه العام . العولمة في تحقيقها لهوية وإنتمائية العمارة في حقيقة الأمر -لا تسعى إلى تحقيق الهوية أو الانتماء بحد ذاتها وإنما اعتمادها وسيلة لمغازلة من يدفع في إطار من تحقيق رغباته ، رغباته المحددة سلفاً بفيض هائل إعلامي وخدمي وسلعي يشكل هذه الرغبات ويقولبها ،وفي أحسن الأحوال يجعلها في إطار ما هو عام لتكون العمومية وسيلة التوافق معه ومجاراته وبالتالي إخراج ما في جيبه .

العولمة في العمارة ليست معنية بكونها توجه أو حركة أو تيار فكري أو معماري له سماته وقواعده وأسسه، ليست معنية بالدرجة الأولى بسيادة فكرها - وإن كانت تسعى جاهدة لذلك- إنما يعنيها تحقيق المكاسب والربح ولو على حساب تعارض أو حتى مناقضة فكرها وتوجهها ، فهي تحقق الهوية وتسعى لذلك إنّ كان ذلك يُرضي الزبون . الهوية التي تقدمها العولمة في العمارة تنفي الهوية باستحضارها أو بعدمه ،تلغي الهوية بتجاهلها، فيما تستحضرها منفية أو مشوهة ليكون نفيها أمضى وأنجع.

العولمة تعكس صورتها ومبادئها في العمارة فهي عولمة في العمارة وليس عولمة للعمارة. وبسبب كونها لا تطرح نموذج أو توجه ثابت وإنما تكتفي بالتأثير والسيطرة دون الإعلان عن ذلك أو التباهي بالإعلان، يمكن القول بعدم صحة وبالتالي جدوى إطلاق تسمية (عمارة العولمة) ، فهي تركز على الفعل والتأثير دون التسميات ، وتركز على السلطة والهيمنة دون كرسيها ، يعزز هذا الجانب تعدد الطيف للتوجهات في إطار العولمة في العمارة فهي تارة عالمية عامة وتارة أخرى محلية الطابع -ولو

بالصورة العامة- وهذا بدوره ينبع من التناقض والفوضى التي تسم توجه العولمة وبالتالي انعكاسها في العمارة .

ترتكز العولمة في العمارة على الاقتصاد والإعلام، فيما تكون الشركات الفاعل الأساس فيها، تعتمد سياسة الفرض بالقوة والسيطرة، القانون الذي يحكمها يتمثل بسياسة اللعبة فمن يملك القوة يمكنه التحكم باللعبة وبالتالي باقي اللاعبين . القوة الأساسية فيها هي المعرفة لذلك تكون في إطار الاحتكار، تختص هذه المعرفة بالبعد الهندسي الذي يقرب العمارة من صيغة الممارسة الهندسية ويبعدها عن الجانب الفني الإبداعي ، يقربها من الجانب المادي ويبعدها عن الجانب الفكري فتصبح العمارة في ظلها كيان مادي معبر عن بعد مادي، تشكل التكنولوجيا فيه أساساً ومرتكزاً.

تشتمل العولمة على نوع من تعميم أنماط الاستهلاك والإنتاج والقيم والجوانب الفكرية والثقافية، حيثُ تدعو العولمة في العمارة إلى تبني نموذج معين يعكس الطابع العام الكوني تموه الطابع المحلي بطابع شمولي جامع وتغلف العمارة المحلية بطابع العمارة الكونية، كما تنشد تقليص التوجهات الخاصة المعارضة . وهي في تأكيدها على الطابع العام تنطوي -في الوقت ذاته- على تمايز وتكريس الاختلاف وتعميق الفوارق بين نتاجات العمارة في الإطار المحلي وخارجه. استراتيجية العولمة في العمارة العامة لإشاعة نمطها تتمثل بتعزيز ودعم نموذجها من جهة وإضعاف ما سواه من جهة أخرى من خلال عدة آليات منها: التأكيد على صراع القديم والحديث، نبذ الخصوصيات المعارضة، التأكيد على الشائع والغالب بدل الأصيل والمتميز، جعل الخاص عاماً أو تناوله بعمومية.

العولمة في إشاعة نمطها وتعميمه تعتمد إضافة لفعلها المباشر عامل التغيير المتدرج الطويل المدى بإعادة بناء الذاكرة الجمعية للمجتمعات عامة والمحلية بوجه الخصوص فضلاً عن طرحها للمنفر والمشوه المؤدي إلى ترسيخ الاعتقاد بعدم جدوى خصوصية النتاج أو تكريس صورة ابتعاده عن ركب التقدم وبالتالي تخلفه، يدعم ذلك إذابة الثقافة بما تحمله من معتقدات وتقاليد اجتماعية لقطع الصلة مع الجذور.

لا يمكن عد العولمة في العمارة تمظهر جديد أو شكل من أشكال العمارة الحديثة -بالرغم من تأكيدها على العالمية- حيثُ تطرح الأولى مبادئ متغيرة ومتناقضة ليكون إنكار القيمة قيمتها الأساسية في الحين الذي أكدت فيه العمارة الحديثة على مبادئ ثابتة ومنهج ومبادئ عامة ثابتة. خلفية التعميم للحداثة يحمل الطابع الاجتماعي هدف التغيير من أجل الأفضل للبشرية، فيما يكون ذي طابع اقتصادي لتمظهر العولمة في العمارة هدف التغيير المنفعة والربح . تؤكد عمارة الحداثة على الوحدة لتوجهها وإذابة الاختلاف أو محوه مؤكدة على نمط موحد ، فيما تفرض العولمة في العمارة التوحيد وتكرس في الوقت ذاته الاختلاف في إطار من الفوضى والتناقض . تؤكد الحداثة على: التجريد، رفض القديم، الوظيفة، رفض المحلي، وتؤكد على العالمي مقابل: التسطيح، تشويه القديم أو تجاهله أو تسطيحه، الكلفة، تمويه المحلي بطابع شمولي جامع وتغليف النتاج بطابع الكونية، فيما يكون العالمي بنفس أهمية المحلي -لممارسة العولمة . دور المعماري في عمارة الحداثة مركزي أساسي يتمثل بأساطينها، فيما يكون هامشي ينضوي ويذوب في إطار الشركات ، الفاعل الرئيسي في التمظهر المعماري للعولمة.

تتوجه العولمة في العمارة إلى أقطاب العملية التصميمية ابتداءاً بالمنتج (العمارة) حيثُ تحولها إلى سلعة لتنزع عنها صفة الديمومة وتجعلها سلعة تشوى وتباع يتحكم في إنتاجها عوامل السوق وجوانب اقتصادية ، العمارة تتحول في ظل العولمة إلى سلعة إلكترونية تعكس بعدها المادي وتسكت عن إن لم تلغي الجانب اللامادي الفكري، تؤكد على البسيط المرن السريع الفهم. فيما تتوجه إلى المتلقي وفق آليتين أساسيتين هما المجاراة وتحقيق رغباته من جهة وقولبة

الذوق وتنميطه من جهة أخرى تدعم هاتين الآليتين جملة آليات ثانوية وتشكل بدورها سمات عملية الإنتاج ، فيما يؤكد على الطابع المؤسساتي لإنتاج العمارة لتنزع الطابع الفردي وتؤكد على دور الشركات التي ينطوي في ظلها المعماري ويذوب .

المصادر

إبراهيم محمود ، " العولمة هل في انفجار هوية ؟ " دراسة في مجلة الفكر العربي معهد الإنماء العربي في بيروت العدد الثالث والتسعون صيف عام 1998

بدران ، د. عدنان ، مقدمة المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب و الفنون : العولمة و الحيوية " تحرير و مراجعة :صالح أبو إصبع , عز الدين المناظرة ، محمد عبيد الله منشورات جامعة فيلادلفيا ــ الأردن، 1999.

بالراشد ، محمد " العولمة و المجتمعات المحلية " دراسة في مجلة اللاتحاف دار الاتحاد للنشر و التوزيع ــ ستليانه ،سبتمبر 1999 .

حجازي د. أحمد مجدي (1) "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية رؤية نقدية في العالم الثالث "دراسة في مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت المجلد الثامن و العشرون ،العدد الثاني ،أكتوبر/ ديسمبر 1999 .

خضور ، د. مجال الدين " المثقف العربي و العولمة " مجلة الوعي الثقافي ، دائرة الشؤون الثقافية العامة العدد 21 مايس – حزيران 1999 .

الرميحي, د. محمد " تمهيد لملف العولمة ظاهرة العصر " عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – دولة الكويت, المجلد الثامن والعشرون, العدد الثاني- لأكتوبر/ ديسمبر 1999.

عبد الخالق عبد الله " العولمة جذورها و فروعها و كيفية التعامل معها "عالم الفكر ،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب – الكويت المجلد الثامن و العشرون – العدد الثاني – أكتوبر / ديسمبر 1999 .

عبد العظيم حماد " الاتجاهات المضادة للعولمة ." مجلة المفرقة ، العدد 46 أبريل / مايس 1999 .

عدنان مسلم " العولمة و المشرق العربي قراءة تاريخية" بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون ، "العولمة والهوية "جامعة فيلادليفا ــ الأردن ،تحرير ومراجعة :صالح أبو إصبع ، عز الدين مناصرة ،محمد عبيد الله ، 1999 .

فانوس ، د. وجيه ،" المتلقي العربي و إشكاليات الهوية " دراسة في مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العالمية – بغداد ،العدد 2 ، 1999 .

قطامي, د. سمير، " الثقافة العربية في مواجهة العولمة." بحث في مجلة الأقلام ،دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العدد السادس ،1999.

مناني د. عدنان, " العولمة نظرة تحليلية في البعد الاقتصادي." مجلة آفاق عربية, دائرة الشؤون الثقافية – بغداد ، العدد :3و4 ،آذار – نيسان، 2000.

المسيري, عبد الوهاب," النظام العالمي الجديد, عولمة الاتفاق بدلا" من المواجهة", مجلة المعرفة, العدد 46, أبريل- مايو، 1999.

ياسر عبد الجواد, قراءة لكتاب منير الحمش " العولمة ليست الخيار الوحيد." مجلة المستقبل العربي, مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت- لبنان, العدد 252, شباط / فبراير، 2000.